

صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي

مسعود شكري (الكاتب المسؤول)*

كبرى روشنفكر**

خليل پرويني***

فرامرز ميرزايي****

الملخص

يُعتبر إميل حبيبي من الروائيين الفلسطينيين الذي عاش في الأراضي المحتلة وكافح بقلمه ضد المحتلين، وتُعتبر رواية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" أشهر أعماله وهي رواية تتكوّن من عدة رسائل أرسلها السارد إلى الكاتب في لغة سخرية أحياناً وجادة أحياناً أخرى مستخدماً الأساليب البلاغية المختلفة إلا أن المغزي الرئيس هو محاولة لتصوير الصراع الدائر في الأراضي المحتلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين. والرواية تهتمّ بالشخصيات الإسرائيلية بوصفها أحد جانبي الصراع والعنصر الذي يحتل موطن الفلسطيني (الأنا) ويمارس العنف والقهر ضده وبما أنه عنصر هام في هذه الرواية بشكل خاص وفي الصراع الدائر في الأراضي المحتلة بشكل عام تم اختياره لدراسة صورته في هذا المقال. فيحاول هذا المقال دراسة صورة الآخر الإسرائيلي اليهودي في رواية المتشائل بوصفها رواية من روايات الأدب الفلسطيني المقاوم وبتنهج المنهج الوصفي - التحليلي في تحليل النصّ الروائي للوصول إلى خصائص الصورة المرسومة للآخر الإسرائيلي في هذه الرواية. وتشير النتائج إلى أنّ الكاتب رسم صورة سلبية للآخر معتمداً على اللغة الرمزية أحياناً والسخرية أحياناً أخرى وبواسطة عدة عناصر مثل اللغة، والجسد، والمكان.

الكلمات الدلّيلية: الصورولوجيا، صورة الآخر، إميل حبيبي، المتشائل، الرواية الفلسطينية.

*. طالب مرحلة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران
mshokry1984@gmail.com

** .أستاذة مشاركة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران
kroshanfekr@gmail.com

*** .أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران
parvini@modares.ac.ir

**** .أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران
mirzaeifaramarz@yahoo.com

المقدمة

إذا أراد شعب أن يعرف نفسه بشكل جيّد، عليه أن يعرف الشعوب الأخرى لتتكشف له نقاط ضعفه وقوّته وعلى هذا الأساس يجب على الشعوب أن يوجد علاقات وسبعة مع الآخرين للمزيد من معرفتهم وبالتالي المعرفة الأفضل بالنسبة إلى أنفسهم. ويمكن معرفة الآخرين عبر طرق عديدة، ومنها دراسة الأدب والإطلاع على رؤى الناس بالنسبة إليهم وإلى الآخرين، وهذا أساس الدراسات التي عرفت باسم دراسات الصورولوجيا (أى دراسة الصورة الأدبية). فهذه الدراسات تتركز على الصورة المتشكّلة للأنا والآخر في الأدب.

تعتبر دراسة صورة الآخر من القضايا التي شغلت النقاد في الآونة الأخيرة وذلك بسبب علاقة هذه الدراسات بما يعرف بحوار الحضارات. ظهرت دراسات الصورولوجيا في الأدب المقارن في بداية الأمر ولكنها توسّعت وتجاوزت الأدب المقارن وأصبحت جزءاً من دراسات النقد الأدبي، وبالتالي تجاوز الصورولوجيا دراسة أدب الرحلات - الذي كان المجال الأول لظهور هذه الدراسات - وأخذ يتسرّب إلى الأنواع الأدبية الأخرى مثل الشعر والرواية و... .

يُلاحظ أنّ أكثر دراسات الصورولوجيا تتركز على النصوص التي تتحدّث عن تلاقي الشعوب والثقافات بشكل سلمى مثل الرحلات أو غير سلمى مثل الحروب والاحتلال، ومن ثمّ يمكن اعتبار أدب المقاومة الفلسطيني من المجالات الحسّاسة لهذه الدراسات. ظهر في هذا الأدب أدباء معروفون ناضلوا بأقلامهم الاحتلال والعدوان الإسرائيلي على الأراضي الفلسطينية وحاول كلّ منهم أن يعرف العدو من وجهة نظره وبما عنده من المهوبة والقدرة في الكتابة وأن يبيّن كيفيات معيشة الناس في ظروف الاحتلال.

ومن الأدباء الذين عاشوا في الأراضي المحتلة الفلسطينية ولم يغادروها طوال حياتهم إميل حبيبي وهو يُعتبر من أشهر الروائيين الفلسطينيين إلى جانب الروائيين الآخرين مثل غسان كنفاني، وجبرا إبراهيم جبرا، ورشاد أبو شاور و... . وقد حاول

1. imagology

حبيبي في رواياته تقديم صورة حيّة لما يجري في الأراضي المحتلة بعيداً عن رفع الشعارات السياسيّة وبلّغته الخاصة التي تتمزج فيها السخرية والمجديّة والفنون البديعية والتشابه والاستعارات و... ليتحدّث عن المعاناة التي يتحمّلها الفلسطينى من جانب الإسرائيليين. ويمكن القول إنّ أشهر أعمال حبيبي هي رواية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل" ويهتمّ الكاتب فيها تقديم صورة من حياة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

تحاول هذه الدراسة التدقيق في ما وراء سطور الرواية للتعرف على الآخر اليهودى الذى تحدّث عنه حبيبي في هذه الرواية لتجيب عن هذه الأسئلة وما شابهها: كيف رسم الكاتب صورة الآخر اليهودى بواسطة اللغة الأدبية؟ وأكّد على أىّ جانب من جوانب الشخصية اليهودية؟ وكيف استخدم المكان الذى ينتمى إليه الآخر اليهودى في تقديم صورته؟ وبما أنّنا لم نعر بعد على منهج متكامل لدراسة الصورة الأدبية من خلال الكتب والدراسات السابقة، فحاولنا التركيز على النصّ ومعطياته للوصول إلى أركان تتبني عليه صورة الآخر في هذه الرواية، إذن يمكن دراسة الصورة في نصّ آخر على أساس أركان أخرى تختلف عمّا ذكر في هذا المقال.

خلفيّة البحث

بالرغم من قلة الدراسات في مجال الصورولوجيا قياساً بالمناهج النقدية الأخرى إلا أنّ هناك دراسات قيّمة تجدر الإشارة إليها منها كتاب «إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)» لماجدة حمّود. وقد اختارت المؤلّفة في هذا الكتاب ثمانى روايات من عدة بلدان عربية وحاولت أن تناقش رؤية "الأنا" العربية ولغتها وموضعها تجاه الآخر وكيفية إيجاد علاقة التفاهم والتعامل مع الآخر في دراسة متأنّية للروايات. من ميزات الكتاب أنّه يحتوي على مقدّمة نظرية حول إشكالية الأنا والآخر، وتمتاز دراسة الروايات بتجاوز المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية، والاهتمام بمجاليات اللغة والمكوّنات السردية (العنوان، والفضاء، والاسم، والضمير، والحوار و...).

وهناك كتاب آخر لنفس الكاتبة -ماجدة حمّود- بعنوان "صورة الآخر في التراث

العربي" والذي تتجذّر الكاتبة في هذا الكتاب دراسة الصورة الأدبية (الصورولوجيا) وظهورها في الأدب المقارن، وتناقش صورة الأنا والآخ ووسائلها وتجلياتها في الأدب في مقدّمة الكتاب. وتحاول الكاتبة في هذه الدراسة، أن تصوّر جوّ التعايش في الثقافة الإسلامية العربية وتبرز مدى اهتمام الإنسان العربي بالآخر وب"الأنا"، جرّاء اهتمامه بالآخر والاعتراف به. من ميزات هذا الكتاب، دراسة اللغة كاحدى ملامح الصورة والحديث عن الآخر الشرقي عكس غالبية الدراسات الموجودة في هذا المجال.

ويتطرّق بهمن نامور مطلق في مقاله المعنون «درآمدی بر تصویر شناسی» إلى الجانب التنظيري لصورولوجيا ويقدم لمحة عن تاريخ الصورولوجيا، ومن أبرز الموضوعات التي تطرّق إليها تقسيم الآخر إلى «الآخر ضمن ثقافة الأنا» و«الآخر خارج ثقافة الأنا» وعدم اعتبار الآخر فرداً أو شعباً خارج ثقافة الأنا في جميع الأحوال، كما يزعم البعض.

وهناك مقال آخر بعنوان «الصورولوجيا كقراءة لنصوص إيران وفرنسا المعاصرة» للاتيشيا نانكت ترجمته مؤدّه حقيقي. يحاول الكاتب أن يقدم أسلوباً للبحث في نصوص الرحلات والأدب القصصي للحصول على صورة الأنا والآخ في هذه النصوص، فيرى بأنّ للمفردات، والصفات، والشخصيات دور خاص في اكتشاف الصورة، كما يصنّف عنصرى الزمان والمكان من العناصر الهامة الأخرى في هذا المجال.

كما أن هناك مقالا بعنوان «دراسة رحلة ابن بطوطة من منظر الأدب المقارن» لخليل برويني وفرشته كنجوريان، وقد تطرّق الباحثان إلى الصورولوجيا وتعريفه وتاريخه، وبيّنا أهمية دراسات الصورة ضمن الأدب المقارن بسبب تقريب الثقافات بعضها من بعض وتعارف الشعوب والمجتمعات.

وهناك مقال بعنوان «جدلية الأنا والآخ (رواية المتشائل نموذجاً)» لعيد محمد الفيومي والذي يتحدث الباحث فيه عن القسم التنظيري لقضية الأنا والآخ بشكل وجيز ويشير إلى أهمية هذه القضية في واقع فلسطين إشارة سريعة، كما يشير إلى مكانة رواية "المتشائل" وجوانب التجديد في مضمونها وبنائها. وبعد التطرّق إلى

فحوى الرواية، ودلالة العنوان، والشخصيات، ودلالة الزمان والمكان، يطرح جدلية الأنا والآخر ضمن الأنا الفلسطينية والآخر الإسرائيلي المحتل، ونحن نعتقد أنّ جدلية الأنا والآخر في هذه الرواية قد تشمل الآخر الفلسطيني أيضاً كما قد تجعل الأمكنة بوصفها أهمّ محور تنازع بين الفلسطيني والإسرائيلي، ضمن هذه الجدلية. ومن ناحية أخرى، يركّز الدارس في هذا القسم على المضامين دون التغلغل إلى كنه اللغة المستعملة وتحليل استخدام المفردات، والتشابه، والاستعارات، والصفات، و... ومن جانب آخر يؤكّد الفيومي على كيفية تعامل الأنا والآخر بعضها مع بعض أكثر ممّا يؤكّد على الصورة المرسومة والخصائص الخلقية والفكرية والإنسانية لأى منهما على أساس نصّ الرواية. بالرغم من وجود هذه الدراسات وأمثالها إلا أنّ الباحث لم يعثر على مقال أو بحث يدرس صورة الآخر في رواية "المتشائل" بشكل مستقلّ مؤكداً على أدبيّة الرواية ولغتها على جانب الاهتمام بالمضمون، وفي البحث الوحيد في هذا المجال بعنوان «جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل نموذجاً)» قد انحصر الآخر في الآخر اليهودي وبذل الدارس اهتمامه على صورة الأنا والآخر من خلال المضامين دون التطرّق إلى لغة الرواية بشكل مناسب، فبالتالي يحاول هذا المقال دراسة صورة الآخر في مجال أوسع وبآليات مختلفة وعلى هذا الأساس يبدو جديداً وجديراً بالاهتمام.

الصّورولوجيا

بعدما توسّعت العلاقات الإنسانيّة وتعرّف أبناء البلدان المختلفة على البعض من طرق سلميّة كالرحلات السياحيّة والتجارية أو غير سلميّة مثل الحروب، تشكّلت رؤى عند شعوب بلد ما تجاه البلدان الأخرى وانعكست هذه الرؤى في أدب الشعوب. وحينما أخذ الأدب المقارن يدرس علاقات الآداب بعضها مع بعض، ظهر فيه فرع من الدراسات باسم "الصورولوجيا" الذي «يتطرّق إلى صورة الآخر وعناصرها في الأدب والفنّ. فالصورولوجيا أسلوب لدراسة صورة البلدان الأخرى والشخصيات الأخرى في أدب أديب ما أو عصر ما أو مكتب ما، ويهتمّ بصورة الآخر في ثقافة الأنا كما يهتمّ بصورة الأنا في ثقافة الآخر، وبالتالي نحن نواجه في الصورولوجيا دراسة الصورة

بين الثقافات.» (نامور مطلق، ١٣٨٨ش: ١١١) إذن السمة الرئيسية للصورولوجيا هي التطرّق إلى اختلاف "الأنا" عن "الآخر" أو اختلاف "هنا" عن "هناك"، وبالتالي يمكن القول أنّ الصورولوجيا دراسة الاختلاف بين الواقعيين في مكانين اثنين (نانكت، ١٣٩٠: ١٠٦) أى واقع "الأنا" التي تعيش "هنا" و"الآخر" الذي يعيش "هناك" ببعده المكاني والثقافي. «يعدّ الصورولوجيا جزءاً من تاريخ الأفكار والثقافات التي تنشأ في بلد واحد أو عدة بلدان، وعن طريق تناول الآخر بالدراسة نظفر بتفكير مختلف بإمكانه أن يغني ثقافتنا ويطور سلوكنا، وعلى هذا يمكننا أن نعدّ الصورة تجسيداً لفعل ثقافي يبرز لنا كيف يتمّ التفاعل مع الآخر، فنلمس مجمل الأفكار والقيم التي تشكّل وجدان الأمة.» (حمود، ٢٠١٠م: ١٤)

«ليس الصورولوجيا نظرية أو مدرسة أدبية جديدة وإنما طريقة لقراءة النصوص وبعبارة أخرى مجموعة من الإرشادات لقراءة صورة "الآخر" في النصوص.» (نانكت، ١٣٩٠ش: ١٠٥) يرتبط الصورولوجيا بالعلوم الأخرى خاصة علم الاجتماع والتاريخ ارتباطاً وثيقاً لأنّ دراسة الصورة المطروحة في النصوص تحتاج إلى إدراك الظروف التاريخية والاجتماعية لفترة كتابة النصوص، (نامور مطلق، ١٣٨٨ش: ١٣٤-١٣٣) كما أنه يرتبط بالأنواع الأخرى للنقد والنظريات - إضافة على النقد الأدبي - مثل النقد النفسي، والنقد الاجتماعي، ونقد ما بعد الاستعمار ونظرية التلقّي. (المصدر نفسه: ١٢٣) إذن نحتاج في دراسات الصورولوجيا إلى معلومات عامة عن الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية لبيئة كتابة النصّ لتساعدنا في الإدراك الصحيح والكشف عن خفايا النصّ.

إن هناك علاقة وطيدة بين دراسات الصورولوجيا ومفهوم الصورة ولأجل هذا يجدر التعرّف على الصورة الأدبية ومغزاها لتبيين وظيفة الصورولوجيا. «يمكننا أن نعدّ الصورة جزءاً من التاريخ بالمعنى الواقعي والسياسي، أى جزءاً من الخيال الاجتماعي والفضاء الثقافي أو الإيديولوجي الذي تقع ضمنه، فتعرّف على الهوية القومية، كما نتعرّف من خلال نظرتها، على الآخر الذي يقف في مواجهة الأنا وإلى دور العوامل السياسية والاقتصادية والدينية لهذه المواجهة والعداء.» (حمود، ٢٠١٠م: ١٠) وتأتي أهمية دراسة الصورة من أنّها تعني بمعرفة الصورة الذهنية التي يشكّلها الإنسان عن

ذاته وعن الآخرين، لذلك فإنّ أبة صورة للآخر هي انعكاس لـ "أنا" سواء أكانت تجسّد اختلافاً (الأنا مقابل الآخر) أم لقاءً (الأنا يشبه الآخر) وبذلك تعدّ الصورة فعلاً ثقافياً، يقدّم تفاعل الأنا مع الآخر أم التعبير عن الذات ونفى الآخر. (حمود، ٢٠١١م: ١٠٧)

صورة الآخر

إذا أردنا دراسة صورة الآخر يجب أولاً التعرّف على الآخر ومفهومه في مجال الصورولوجيا. «فالآخر مصطلح ولد في البيئة الغربية لا جذور له في البيئة المسلمة، ففي البيئة الغربية وإبان الثورة الفرنسية كان يطلق علي الثوار والمتبنين لمبادئ الثورة والمنادين بها من الأسماء ما يوحي بأنهم فريق واحد في مواجهة الاستبداد وفي مواجهة الإقطاع والرجعية وأعداء الحرية والمساواة والعدالة. وظلّ هذا المفهوم ينمو وينتشر في البيئة الغربية حتى انتقل إلى الثورة الأمريكية، فالثوار الأمريكيون الذين كانوا يناضلون من أجل تحرير أنفسهم من هيمنة بريطانيا وفرنسا كانوا كثيراً ما يشيرون إلى نحن We People والآخر The Other أولئك المستعمرين. أولئك الذين جاءوا إلى أرض ليس لهم حق السيطرة عليها ولا الاستبداد بمقدراتها. (العلواني، ٢٠١٢م: <http://www.veecos.net>) هذا التعريف يشير إلى الآخر بشكل عام ولكن في الثقافة العربية حينما يجرى الكلام عن "الآخر" في أكثر الحالات «يعني به الأجنبي المضاد للذات العربية والذي فرضت الظروف السياسية والاجتماعية والجغرافية والحضارية أن يكون هناك اتصال، وتماس، وعلاقات، وحوار بين الطرفين.» (عيسى، ٢٠١٠م: ١) ولكن هذا التعريف للآخر يبدو ضيقاً وغير شامل، إذ ينحصر الآخر فيه على الآخر العدو والمضاد لأننا، والحقيقة أنّ مفهوم "الآخر" أكثر اتساعاً من هذا ويُطلق على «مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والسلوكية والفكرية التي ينسبها فرد ما أو جماعة إلى الآخرين الذين هم خارجها.» (ياسين، ٢٠٠٦م: ٦) فبناءً على هذا التعريف يمكن اعتبار علاقة شخص ما مع الآخرين في مجتمع واحد، من ضمن علاقة الأنا والآخر، وليس من الضروري أن يكون الآخر مضاداً وعدواً للأنا، وعلى هذا الأساس «ينقسم الآخر إلى الآخر الذي يقع ضمن ثقافة الأنا والآخر الذي يقع

خارج ثقافة الأنا.» (نامور مطلق، ١٣٨٨ش: ١٢٣) فإذا أردنا أن نلخص مفهوم الآخر يمكن القول أن الآخر هو الذى يختلف عن الأنا تفكيراً أو ثقافة أو جنساً أو ديناً، وقد يتجاوز مفهوم الآخر الاختلاف الفكرى والثقافى والجنسى، ويصبح الآخر عدو الأنا ويحاول رفضه والنيل منه فتتشكل جدلية حادة بينهما.

وتجدر الإشارة أننا حينما نتحدث عن الأنا والآخر، لا نحصر مفهومه فى الفرد الواحد بل تشتمل قضية الأنا والآخر على المجتمعات أيضاً لأن «مفهوم الآخر ليس مفهوماً فردياً فقط، وإنه مفهوم جمعى أيضاً، فكما أن الفرد يشكّل تصوّراته عن الآخر بناءً على تصوّره لذاته، فإن المجتمع كذلك يكون له تصوّراً عن الآخر بناءً على تصوّره لذاته، أى أن هناك تلازماً أيضاً بين صورة الذات وصورة الآخر على المستوى الجمعى كما هو على المستوى الفردى»، (الحبّاز، ٢٠٠٩م: ٢٣) وبالتالي يتوسّع مجال علاقة الأنا والآخر ويخرج من الإطار الضيق الذى قد يرسمه البعض وهو علاقة شخص مع شخص آخر عدو أو أجنبى. فبناء على ما ذكر يمكن اعتبار كل مجتمع، آخر بالنسبة إلى مجتمع ما كما يمكن اعتبار كل شخص، آخراً مقابل شخص آخر فى مجتمع آخر وثقافة أخرى، ويمكن اعتبار الأشخاص فى مجتمع واحد «الأنوات» و«الآخرين» بشرط اختلاف معتقداتهم أو دينهم أو رؤيتهم إلى موضوع خاص.

إميل حبيبي

ولد إميل حبيبي فى عائلة شيوعية عام ١٩٢١م فى حيفا بفلسطين وترعرع وعاش هناك حتى وفاته عام ١٩٩٦م. (حبيبي، ٢٠٠٧م: ٦٣) بدأ إميل حياته العملية فى شركة تكرير البترول فى حيفا، ثم عمل بعد ذلك مديعاً فى إذاعة القدس وبعد الاستقالة من إذاعة القدس، عمل ككاتب فى الصحف السياسية وكتب أول رواياته «سداسية الأيام الستة» عام ١٩٦٩م، وتعتبر هذه الرواية، الأولى بعد هزيمة حزيران، كما يُعتبر إميل حبيبي ثانى روائى فلسطينى يؤسس الرواية العربية الفلسطينية المعاصرة بعد غسان كنفانى. (الناבלسى، ١٩٩٢م: ٩٥-٩٣) «دعى إميل فى أعماله الأدبية الفلسطينيين إلى عدم الرحيل من مدنهم وقراهم، على الرغم من المجازر التى كانت العصابات الصهيونية

ترتكبها لحملهم على الرحيل وسياسة الترحيل الجماعي الذي اعتمدتها الدولة العبرية منذ البداية حتى الآن. وكان التشبث بالأرض وبالهوية العربية لفلسطين مدار نضاله السياسي ونشاطه الأدبي على السواء، ومن دون وعي أن هذا التشبث هو الفكرة المحورية في عالمه الأدبي، فإننا نغفل جانباً هاماً فيه، ومستوى أساسياً من مستويات المعنى والدلالة التي تنطوي هذه الأعمال كلها عليها.» (حافظ، ١٩٩٦م: ١١٤)

يُعتبر إميل حبيبي واحداً من ثلاثة أدباء فلسطينيين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها وهم غسان كنفاني ومحمود درويش وإميل حبيبي. (الأسطة، ٢٠٠٨م: ٤٤) وتشتمل أعماله الأدبية على: بوابة مندلباوم (١٩٥٤م)، النورية - قدر الدنيا (١٩٦٢م)، مريثة السلطعون (١٩٦٧م)، سداسية الأيام الستة (١٩٦٨م)، الوقائع الغربية في حياة سعيد أبي النحس المتشائل (١٩٧٤م)، إخطية (١٩٨٥م)، خرافية سرايا بنت الغول (١٩٩١م) ونحو عالم بلا أقطاص (١٩٩٢م). تُعتبر رواية "المتشائل" أهم أعمال إميل الأدبية واندرجت ضمن قائمة أفضل مئة رواية عربية.

رواية "الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل"

كتب إميل ثلاث روايات: سداسية الأيام الستة، والوقائع الغربية في حياة سعيد أبي النحس المتشائل وإخطية. ولكن روايته الفذة التي شاع صيتها في آفاق الأدب العربي المعاصر هي «الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل». نالت الرواية شهرة واسعة و«ترجمت إلى ست عشرة لغة من اللغات الأوروبية وغير الأوروبية». (حافظ، ١٩٩٦: ١١٥) قد صيغت هذه الرواية بشكل ذكريات كتبها سعيد، الشخصية الرئيسية في الرواية إلى الكاتب، ويسردها الكاتب بشكل حكايات قصيرة في ثلاثة فصول ولكل فصل اسم خاص. «لم يسلك إميل حبيبي في هذه الرواية أيّاً من السبل المطروقة في الرواية العربية أو العالمية، بل أسس إبداعاً جديداً يقوم على استلهام التراث الفلسطيني والعربي، وحسن استخدام اللغة، والمجراً في التعامل معها، والاستعانة بالأمثال والحكايات، ثمّ اللجوء إلى السخرية أو الفكاهة السوداء. وجوهر الرواية هو وصول بطلها "سعيد" إلى حتمية صيغة الفداء والمقاومة المسلّحة.» (يحيى، ٢٠٠٧م: ٦٤-٦٣) يدلّ عنوان الرواية على الخطوط العامة داخل النصّ الروائي حيث يستخدم الكاتب صفة "المتشائل"

لشخصية سعيد وهي «منحوتة من المتشائم والمتفائل والكاتب يشير في النص أن صفة المتشائم هي كنية لحقت بعائلة سعيد، فهي ليست وصفاً خاصاً به، مما يعمق الدلالة، فسعيد يقف بين حدّين هما التفاؤل والتشاؤم، السعادة والنحاسة، ممّا ينبئ بعالم الرواية المحافل بالضطرابات والانفعالات المتنوّعة والمختلفة والمندمجة بعضها ببعض لتنعكس على علاقة الأنا والآخر. فالكاتب يصف شخصية سعيد منذ البداية ويحمّد الاحساس بهذه الشخصية مباشرة قبل اللوج إلى النصّ وبرز أن سعيد هو مركز التبئير الحكائي داخل النصّ والذي تتمحور حوله العلاقة تتجسّد من خلال جدليّة الأنا بالآخر.» (الفويومي، ٢٠١١: ٨٧٠-٨٦٩) فشخصية سعيد التي تحمل تناقضات مختلفة وتراوح بين اليأس والأمل، والخوف والرجاء رمز للأنا الفلسطينية في هذه الرواية وهي في علاقة دائمة مع الآخر الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. ونظراً إلى أن إميل حبيبي كان من سكان الأراضي المحتلة وقد عاش في ظروف الاحتلال القاسية، حاول في روايته أن بصور كيفية احتكاك الفلسطينيين بالإسرائيليين المحتلين والصراع الدائر بين الأنا والآخر في وطنه.

القسم التطبيقي

إذا أردنا دراسة صورة الآخر في نصّ أدبي يجب الاهتمام بكلّ مكونات صورة الآخر والتي تتراوح بين الخصائص الشخصية مثل وصف الجسد، ودلالة الاسم، واللغة، والمعتقدات، والأفكار، وما يخرج عن إطار الخصائص الشخصية ولكنه توجد علاقة وثيقة بينه وبين شخصية الآخر الجمعي والفردى، كالزمان والمكان والأدوات التي يستخدمها الآخر. وفي أكثر الأحيان يكتفى الأدباء بتقديم صورة رمزية قد تشكّلت من هذه المكونات وبيتعدون عن تقديم صورة مباشرة، ولأجل الوصول إلى صورة متكاملة للآخر (أو الأنا) يجب دراسة مكونات الصورة بشكل دقيق.

٧-١- الصورة الجسدية للآخر الإسرائيلي

قلّما نشاهد في الرواية الوصف الجسدى للآخر ولكن بالرغم من قلّته إلا أنه وصف ذو دلالات رمزية والكاتب يستخدم مفردات إيجابية لتصوير ظاهر شخصية الآخر حيث قد يتجاوز الوصف الظاهري القالب الفيزيقي للشخصية وتشير إلى ذات

الآخر. فحينما يصف سعيد الجنود الإسرائيليين يصفهم من خلال تشبيههم بالأثافي حيث يقول: «نزلنا أمام باب السجن الحديدى فهبط العسكر من عربة الكلاب وهرع ثلاثة منهم نحوى فأحاطوا بى كالأثافي الثلاث.» (حبيبي، ١٩٧٤م: ١٦٧) و«... أنا واقف فى الساحة الداخلية تحيط بى الأثافي.» (المصدر نفسه: ١٦٧) و«تعنى الأثافي المنصب ذا ثلاثة أرجل يحمل القدر، إلا أنها فى الوقت ذاته تجسد معنى الشّر المستطير وإحكام قبضة اليد بكلّ الرسوخ والثبات والاستقرار. فهو يهدف من وراء هذا الوصف إلى ربط العالم الخارجى للعساكر بالمنصب ذى ثلاثة أرجل وأتساق هذه الأدوات مع النار المتقدة فى داخلهم بالنّار المشتعلة تحت القدر، الأمر الذى يتناسب مع الممارسات التعذيبية للسجناء داخل السجون الإسرائيلية.» (زعر، ٢٠٠٦م: ٨٨) وتتلون الأثافي دائماً بلون الأسود بسبب تعرّضه الكثير للنّار فتشبيه الجنود بالأثافي يحمل تشويه صورة الآخر إضافة إلى الإشارة إلى دلالات الثبات والاستقرار فى التشبيه نفسه.

وفى الموضوع ذاته يوجد الكاتب علاقة وثيقة بين شخصية الآخر والكلب، فهبوط العساكر من عربة الكلاب «إشارة إلى تماهى شخصية العساكر بالكلاب للتدليل على طغيان العالم اللانسانى.» (زعر، ٢٠٠٦م: ٨٨) فالكاتب لا يشبه العساكر بالكلاب بشكل مباشر بل يوحى للمتلقّى أنّ مكانتهم قريبة من مكانة الكلاب إذا لم تكن متساوية، وبعد عدّة أسطر يصوّر السارد مدير السجن بأنّه: «يهرع لاستقبالنا وأمامه كلبه البولدرغ المدلل، هذا يهشّ وذاك يكشّ.» (حبيبي، ١٩٧٤م: ١٦٧) فهنا أيضاً يقرب الروائى على لسان سعيد شخصية الآخر من مكانة الكلب باشتراكهما فى السلوك والشعور ليرسخ الصورة السلبيّة المشوّهة للمحتلّ لدى المتلقّى. وإذا ألقينا نظرة فاحصة على الفقرتين اللتين يتحدّث سعيد فيهما عن مواجهته مع الآخر الإسرائيلى فى السجن، لشاهدنا أنّه يذكر مفردة "الأثافي" مرّتين و"الكلب (الكلاب)" أربع مرّات فى هذا الموضوع وهذا قد يدلّ على الحضور الكثيف لصورة الآخر المشوّهة فى المشهد المذكور.

وبعدما يدخل سعيد السجن ويواجه السجناء يصفهم بهذه العبارات: «رأيتنى واقفاً فى وسط حلقة من السجناء العراض الطوال، كلّ سجان بعينين ناعستين اثنتين وبساعتين مشمّرتين اثنتين وبفخذين غليظتين اثنتين وبفم واحد مفترّ عن ابتسامة

كشراء كأنما طبعت جميعها في قالب واحد.» (حبيبي، ١٩٧٤م: ١٦٩) فيلاحظ أنّ صورة الآخر السجّان تتكوّن من عناصر ماديّة ضخمة مشوّهة مثل الفخذين الغليظتين والساعدين المشمّرتين و... عناصر تفقد المواصفات الإنسانية المعتادة ويبرز جانبها المادّي، كأنّ هؤلاء السجانين رجال آليّة صُنعت للإرعاب والتعذيب. والمتفحص في مفردات هذا الكلام يدرك أنّ استعمال فعل "طُبعت" يدلّ على الصورة اللاإنسانية للآخر عند الأنا، فلو كان الأنا يتحدّث عن الآخر بوصفه إنساناً لكان يستعمل مشتقّات "الخلق" أو ما يشابهه، ولكن هذا الآخر خالٍ عن الروح الإنسانية والرأفة وكأنّه مصنوع من مصنوعات يد الإنسان ويتمّ إنتاجه بواسطة آليّات خاصة في قالب واحد. إضافة إلى ذلك تمّ استخدام ضمير "ها" في "جميعها" بدل ضمير "هم"، وهذا قد يدلّ على أنّ الكاتب أو الأنا يعامل السجانين معاملة الجمع المؤنث أو الجمع المكسّر لغير العاقل، فاستعمال هذا الضمير يمكن أن يكون بسبب ادّعاء ضعفهم أو على أساس أنّهم يشبهون الأشياء ويعيدون عن الصفات الإنسانية وهم مجرد آليّات لتعذيب المسجونين.

وفيما يتعلّق بتسمية شخصية الآخر الإسرائيليّ يُلاحظ أنّ الكاتب يفضّل الإبهام في تسمية الآخر بشكل متعمّد، «فهو مقابل تحديد اسم شخصيّة سعيد ولقب عائلته (سعيد أبو النحس المتشائل) والتفاصيل الكاملة عن شخصيّة الأنا الفلسطينية، يعطى ألقاباً مبهمّة غير واضحة لشخصية الآخر (الرجل الكبير ذو القامة القصيرة) ممّا يعنى أنّ الكاتب أراد من وراء ذلك أن يؤكّد على البعد الاجتماعيّ الذي تتمنّع به شخصية "الأنا" فهي تعيش في بيئة اجتماعية معروفة وغير مبهمّة أو مجهولة، فتتأكد الذات الاجتماعية "للأنا الفلسطينية" في مقابل المجهول والابهام لشخصية الآخر، ممّا يعمق غربة هذا الآخر عن هذه الأرض وينفي بعده الاجتماعيّ.» (القيومي، ٢٠١١م: ٨٧٣) وإذا دققنا في تسمية الآخر اليهودي لاحظنا أنّ مفردتي "الكبير" و"القصيرة" تشكّلان عدم انسجام ملفت للنظر بسبب اختلاف معناهما، ومن الواضح أنّ الروائي لا يقصد الكبر الجسديّ في هذه التسمية و"الرجل الكبير" إشارة إلى قوّته ومنصبه، ولكن لا يمكن إغماض الجانب الجسديّ أيضاً في التسمية، فحينما يواجه المتلقّي الصفة الثانية للشخصية وهي "القصيرة"، ربّما تتبادر إلى ذهنه الرسوم الكاريكاتيرية التي لا تتناسق أعضاء جسم الإنسان فيها، فيكبر عضو

أكثر ممّا هو في الواقع ويصغر عضو آخر. إذن يمكن القول إنّ تسمية الآخر اليهودي يحمل دلالات التحقير والاستهزاء إضافة إلى رفض بعده الاجتماعي وعدم الاعتراف بهويّته.

٧-٢- الآخر في مرآة المكان

بما أنّ المكان يلعب دوراً أساسياً في الصراع الدائر بين الأنا الفلسطينية والآخر الإسرائيلي، قد اهتمّ الكاتب بقضية المكان اهتماماً بالغاً وذكر الأمكنة في روايته حاملةً مفاهيم رمزيّة تشير إلى جوانب من صورة الأنا والآخر. فقد يشرح الكاتب معاناة الأنا الفلسطينية بواسطة المكان الروائي كما قد يشير إلى قسوة الآخر الإسرائيلي وظلمه وهويّته المزيفة من خلال الأمكنة التي تنتسب إليه. والواقع الذي يُشاهد في الأراضي المحتلة أنّ «إسرائيل تحاول نفي العربي من مكانه لكى تنهى نفي اليهودي من مكانه. فاليهود يعتبرون أنفسهم منفيين من فلسطين ومشرّدين في أنحاء العالم منذ أكثر من ألفى سنة، والآن قد حانت نهاية النفي بنفي الفلسطيني من مكانه. وتلك قمة المأساة الإنسانية التي تتلخّص: بأننا إذا أردنا نهاية نفي إنسان فعلياً أن نبدأ بنفي إنسان آخر، وكأن شرط نهاية النفي لا يتحقّق إلا بشرط بداية النفي.» (النايلسي، ١٩٩٢م: ١٠٦-١٠٥) وبناءً على الصراع القائم على المكان بين اليهود والفلسطينيين، يتجلّى المكان في هذه الرواية تجلياً بارزاً ويهتمّ به الكاتب اهتماماً بالغاً «بوصفه تجربة تحمل معاناة الشخصيات وأفكارها ورؤيتها للمكان لإثارة خيال المتلقّي واستحضاره كمكان خاص مميّز.» (هلسا، ١٩٨٩م: ٩)

يحاول الآخر الإسرائيلي بمختلف الطرق أن يجعل للمكان الطابع اليهودي حتى يفوز في المعركة الدائرة على المكان في الأراضي المحتلة وللوصول إلى هذا الهدف يتشبّه بالأدوات المتعدّدة. وإحدى هذه الأدوات هو تغيير اسم المكان لتقريبه من الثقافة اليهودية وإيجاد شعور الانتماء إلى هذه الأرض عند اليهوديين وإبعاد الفلسطيني من أرضه الموروثة. لأنّ «المكان بشكله وملاحه المادية والمعنوية يعطى طابعاً للهوية الذاتية القومية والحضارية ويشكّل كياناً مستقلاً للإنسان. ولهذا كان حرص الإنسان على مكانه حرصاً في ذات الوقت على هويّته وكيانه.» (الرشيدى، ٢٠١١م: ٣٦) فقد

انعكست ظاهرة تغيير أسماء الأماكن في رواية "المتشائل" وذكر الكاتب أن اليهوديين غيروا أسماء الأماكن (تغيير "عين جالوت" إلى "عين حاروت" و"نابلس" إلى "شخيم" على سبيل المثال) ولكنهم «أبقوا حيفا على اسمها لأنه توراتي». (حبيبي، ١٩٧٤م: ٥٧) فيحاول الآخر المحتل من خلال تغيير اسم المكان، نفي الفلسطيني من مكانه وإلغاء هويته، كما يستمد من أداة اللغة أيضاً كإحدى مؤشرات الثقافة والهوية، ونرى بأنه يستخدم اللغة العبرية والإنجليزية في البيئة المحتلة: (يقول سعيد) فأخذتُ أقرأ أسماء الدكاكين بالإنجليزية، فأقارن الحرف الإنجليزي بقريته العبري على لوحة الدكاكين. (المصدر نفسه: ٦٤) وبهذه الطريقة يأخذ المكان صورة غير عربية وتسيطر عليه السمة الصهيونية الإسرائيلية. ولأجل هذا يضطرّ المواطن العربي أن يتعلم العبرية حتى يستطيع أن يعيش في هذه المدينة وبهذه الطريقة يبتعد العربي عن هويته ويقترّب من المحتلّين، ويظهر تأثير هذه الظاهرة على الأجيال التالية التي تبتعد تدريجياً عن اللغة الأمّ ويزول عنها إحدى مؤشرات الهوية وهذا ما يسعى وراءه الاحتلال.

أمّا تغيير هوية المكان فلا يهدف لإبعاد الفلسطيني فحسب، بل يحاول الآخر بهذة الطريقة إلغاء هوية الفلسطيني ويحاول أن يحتمل المكان هويته الخاصّة وثقافته وأفكاره. «ومن الممكن النظر إليه من وجهة نظر فكرية، لأنّ المكان ليس محض مكان موضوعي محايد، إنّما هو مكان روائي فني، يتمّ تصويره من وجهة نظر ومن خلال رؤية، وعبر التفاعل مع الشخصيات والحوادث وهو بذلك يحمل قيمة، أو يمثّلها، أو يرمز إليها.» (أصغرى، ١٣٨٨ش: ٣٩) على سبيل المثال، يتحدّث سعيد عن مدرسة فلسطينية قديمة قد تغيّرت بواسطة الآخر الإسرائيلي ويقول: ... فارتحتُ على مقعد من مقاعد المدرسة التي حولوها إلى مقرّ الحاكم وحولوا ألواحها إلى طاولة بنغ بونغ. (حبيبي، ١٩٧٤م: ٢٢) يصوّر هذا السطر من الرواية إحدى سمات المحتلّين وهو القضاء على الثقافة والعلم، ويتبيّن هذا الأمر من خلال تغيير هوية المكان، حيث إنّ المدرسة هي اللبنة الأولى لتقدّم أيّ بلد وهي الخطوة الأولى التي يخطوها طالب العلم والفضل، ولكنّ الآخر لا يكتفّر بمثل هذه القضايا ولا يتبع منطق العلم، إذ كان بوسعه أن يحوّل المدرسة إلى مدرسة إسرائيلية تروّج أفكاره وثقافته ولكنه لم يفعل ذلك وبواسطة تحويله المدرسة إلى المقرّ

العسكري، أثبت أنه لا يروّج أفكاره وآرائه إلاّ بواسطة القوة والسلاح. بالرغم من الخراب والدمار اللذين أصيب بهما المكان إلاّ أنّ الآخر الإسرائيلي يرى أنّ التحوّلات التي أحدثها في المكان تتسم بسمة إيجابية (أو يتظاهر هكذا)، إذ يقول الرجل الكبير (رمز الآخر الإسرائيلي): الخضرة، الخضرة على يمينك وعلى يسارك وفي كلّ مكان، أحيينا الموات وأمّتنا الحيات (وكان يعنى الأفاعي). (حبيبي، ١٩٧٤م: ١٦٥) يدعى الرجل الكبير بأنّ الاحتلال قام بخدمة البلاد وقام بإعمارها ولذلك أطلقت على حدود إسرائيل القديمة اسم "الخط الأخضر". ويدعى أنّ هناك بونا شاسعا بين الأماكن التي خضعت لحكم إسرائيل وبين المناطق التي لم تخضع بعد، ويظهر جشعه في إلحاق البلدان الأخرى للأراضي المحتلة بكلامه هذا: «فما بعدها (بعد حدود إسرائيل) جبال جرداء وسهول صحراء وأرض قفراء تُنادينا أن أقبلي يا جرّارات المدينة.» (المصدر نفسه: ١٦٥) فالمحتل يدعى أنّ الاحتلال سيعمر الأراضي الباقية غير المحتلة ويرى من حقّه اغتصاب الأراضي الأخرى وتغييرها حسب وجهة نظره، وبسبب جنونه في الاحتلال وتدمير الأراضي، يتوهم أنّ المناطق الأخرى تدعوه إلى المبادرة بالسيطرة عليها وتقديم المدينة المزعومة إليها بالطريقة الخاصة التي يمارسها الصهاينة مع الأمكنة. ولا يخفى في كلامه الاعتراف غير المباشر بالتخريب والتدمير من خلال تركيب "جرّارات المدينة" الذي يحمل في طياته إيجاءات الإطاحة بالأمكنة وتدميرها وهكذا يتبين أنّ هذه الحضارة لا تتبنّى إلاّ بواسطة القضاء على الحضارات الأخرى. فنشاهد هنا أنّ الكاتب يقدم صورة من أفكار وهو اجس الآخر الإسرائيلي من خلال تحدّثه عن المكان ونظرته إليه. و عكس ما يزعم المحتلّ في إعطاء المدينة للأمكنة وإعمارها، يرى الفلسطيني أنّ المكان الذي تمّ احتلاله، أصبح مكاناً مريضاً. فحينما يصف سعيد "سجن شطة الرهيب" يقول: فنظرت أمامي فإذا ببناء ضخم ينتصب أمامي كالغول في الصحراء، ... فهالنا مشهد هذه القلعة الصفراء لاخضرة ولاكسوة وهي ناتئة كالدمل السرطاني على صدر أرض مريضة بالسرطان. (المصدر نفسه: ١٦٦) فهذا البناء بسبب لونه الكريه من وجهة نظر سعيد، يظهر كموجود غريب عملاق في صحراء خاوية وهذا صنيع أيدي الذين يتشدّقون بإهداء المدينة إلى الصحاري والجبال وهاهم بنوا أكره وأخوف بناء لتعذيب

الفلسطينيين وإذائهم. وحينما يشبّه سعيد هذه القلعة (السجن) بالدمل السرطاني، يصوره في ذروة الفساد والضرر، ويرى أنّ إزالة هذا الفساد والضرر مستعصية جداً، لأنّ علاجه يحتاج إلى تغييرات في خلايا هذه الأرض، كما أنّ علاج السرطان يحتاج إلى تغييرات كيميائية في خلايا جسم الإنسان.

وهناك دلالة رمزية في اسم "شطة الرهيب"، حيث «يحمل اسم المكان الروائي في العادة دلالة رمزية، فالمكان يسمّى بحسب شكله أو لونه أو وظيفته في النص»، (سعودي، ٢٠٠٩م: ١٢٢) فيحمل القسم الأول من اسم السجن (شطة: بعد) إحياءات الوحدة والوحشة بسبب البعد عن السكن والمجتمع، والقسم الأخير (الرهيب: المخيف) يدلّ على كبر حجمه ولونه العجيب والصعوبات والإيذاءات التي يحتويها السجن، خاصة إذا كان سجن الصهيونيين. فالاسم المتشكّل من البعد والخوف وحقيقة السجن المخيف، يؤدّي إلى ازدياد الشعور بالضغط في مواجهة هذا الموجود الغريب المخيف.

٧-٣- الآخر الإسرائيلي والديمقراطية

الديمقراطية والالتزام بأحكامها من أهمّ الركائز التي يعتمد عليها الآخر الإسرائيلي لتبرير جرائمه وممارساته التعسّفية، وبما أنّه يمتلك القوّة وزمام المبادرة مهما يرى الحاجة إلى التدرّع بهذه الذريعة السياسية، يتوسّل بها ويواصل تصرّفاته وممارساته. على سبيل المثال حينما يتحدّث الرجل الكبير (رمز الآخر الإسرائيلي) مع سعيد، يشير إلى قضية طرد نائب شيوعي يهودي من جلسة الكنيست بسبب توجيه اتهامات إلى وزير الدفاع إثر هدم بيوت القرى الفلسطينية والسبب الرئيس الذي يذكره الرجل الكبير لهذه القضية هو: «إنّ الديمقراطية يا ولد ليست فوضى، والشيوخيون كما ترى فوضيون. فرفض نائبهم الانصياع لأوامر الديمقراطية فطرده الرئيس من الجلسة طرداً.» (حبیبی، ١٩٧٤م: ١٦٤) فهنا يمكن استنباط عدة تأويلات من كلام الآخر الإسرائيلي، الأوّل: أنّ كلّ من يخالف الآخر يخالف الديمقراطية لأنّ الآخر يمثّل الديمقراطية بمعنى الكلمة (كما يدّعي الآخر نفسه) وهو ما أشار إليها ضمناً في عبارة "رفض نائبهم الانصياع لأوامر الديمقراطية"، فبدل استخدام "أوامر الرئيس" استخدم "أوامر الديمقراطية" وأعطى عنواناً أكثر فخامةً

وأكثر قبولاً للرئيس وجعله اللسان الناطق باسم الديمقراطية. التأويل الثاني: بما أنّ الآخر الإسرائيلي يمثّل الديمقراطية بشكل كامل، - علي حدّ قوله - فكلّ من يخالفه في الرأى أو ينازعه فهو خارج عن إطار الديمقراطية ومن خرج عن هذا الإطار يقع ضمن دائرة الفوضى، والشيوغيون - كما يقول الرجل الكبير - فوضويون لأنّهم يوجّهون اتهامات للآخر الديمقراطي البحث، وبهذا السبب تمّ طرد نائهم من جلسة الكنيست. والتأويل الثالث أنّ الآخر يتشدّد بالديمقراطية ويتوسّل بها ولكنّه يهتك ويسلب حقهم في حرية التعبير بوضوح كامل، وهذه القضية من أفضل النماذج لهذا الأمر.

الأحكام التي يتمّ تنفيذها من جانب الآخر الإسرائيلي تحت عنوان أحكام الديمقراطية، تتماشى مع رغبة السلطات الحاكمة لا الديمقراطية الحقيقية، ورغم أنّ الآخر يؤكّد دائماً على ديمقراطيته إلا أنّ تصرفاته تعكس ذلك. على سبيل المثال يصدر الآخر الإسرائيلي حكم الإقامة الجبرية بحق سعيد بسبب تسوّق البطيخ والخطر الذي يسفر عن هذا الأمر على أساس هذا التبرير: «الذي ينقل البطيخ سرّاً ينقل الفجل سرّاً وبين الفجل والقنابل اليدوية مجرد لونه الأحمر، والأحمر على كلّ حال ليس الأزرق والأبيض. وبالبطيخ تستطيع أن تنسف كتيبة كاملة إذا أخفيت فيه قنابل نعل.» (حبيبي، ١٩٧٤م: ١٧٨) فبعدها يصدر أمر الإقامة الجبرية لسعيد يعلّق الورقة على جدار مبيعه إلا أنّ الشرطة تأتي إليه وتخبره بإلغاء الإقامة الجبرية وتنقله إلى السجن باتّهام التماهي بالأوراق الحكومية. وهنا يؤكّد الشرطي على ديمقراطية الدولة مرّتين وهو في حال إلغاء حرية سعيد (الأنا)، حيث ينقله إلى السجن دون اتّهام مبرر وجريمة مرتكبة. ففي المرّة الأولى يبيّن هذا الأمر قائلاً: «إنّ دولتنا ديمقراطية» (المصدر نفسه: ١٧٩) فهو يستخدم أداة التأكيد في بداية الجملة لتقرير مفهومها، كما يستخدم مفردة "دولتنا" ليشير إلى قوّة الآخر الجمعي ويعتبر نفسه جزءاً من هذه القوّة ويعتزّ بها. وفي الجملة الثانية يقول: «إنّ ديمقراطيتنا لا تصلح لكم» (المصدر نفسه: ١٧٩) وإذا دقّقنا في مفردات الجملة نشاهد أنّ الآخر الإسرائيلي يؤكّد على وجود علاقة وثيقة بين الديمقراطية والآخر الإسرائيلي الجمعي (الديمقراطية + نا) ووجود الفاصل بين الديمقراطية والأنا الفلسطينية الجمعية (لكم) بواسطة فعل "لا تصلح" المنفي، ويرى

الشرطيّ أنّ هذا الأمر - أي عدم صلاحية الديمقراطية للفلسطيني - هو سبب نقل سعيد إلى السجن ولكن إذا دققنا في الأمر، للاحظنا أنّ هذا النوع من الديمقراطية تخصّ الآخر الإسرائيلي حيث تتبني إلغاء حقوق الإنسان الذي يختلف عنه أو يخالفه، أو بعبارة أخرى لا توجد ديمقراطية في الحقيقة.

يدّعي الآخر الإسرائيلي في أكثر من موضع في رواية المتشائل أنّ الدولة المقامة في الأراضي المحتلة دولة ديمقراطية ولكن في أيّ موضع يأتي هذا الادّعاء ينقض أقوال أو أفعال الآخر نفسه. على سبيل المثال بعد انفجار الألغام التي زرعها الإنجليز والعرب والإسرائيليون، يعلن يعقوب إحدى الشخصيات التي ترمز إلى الآخر الإسرائيلي: «بما أنّ جمعيتنا اتحاد عمّال فلسطين هي منظمة ديمقراطية، في دولة ديمقراطية، فأنتم أحرار أن تعلنوا أنّ اللغم هو من بقايا الإنجليز أو أنّ اللغم هو من بقايا العرب» (المصدر نفسه: ٧٥) فهذا نوع طريف من الديمقراطية نشاهدها عند الآخر الإسرائيلي حيث تسمح للناس أن يتحدثوا بحرية ولكن في الإطار الذي تحدّده هذه الديمقراطية والسلطة الحاكمة.

من المواضيع الأخرى التي ظاهرها مراعاة أحكام الديمقراطية وباطنها ظلم واضطهاد، حكاية طفل في العاشرة من عمره يذهب بسعيد عند قاضي المحكمة العسكرية ويدّعي بأنّه من أقربائه، فيُحكم على سعيد بالسجن ثلاثة أشهر أو بفيدي خمسين ليرة، «لأنّ الطفل سافر إلى حيفا دون إذن عسكري بالسفر إلى حيفا، حيث إنّ أصول الديمقراطية تحول دون حبس الطفل فقد قرّروا حبسي - أي سعيد -» (حبيبي، ١٩٧٤م: ١٣٣) فيلاحظ في تصرّفات الآخر تضادّ مثير للضحك والسخرية، فيدّعي الآخر أنّه يراعى جميع أصول الديمقراطية ويحكم على البلاد بطريقة ديمقراطية، ولكن في ذات الوقت يحرم المواطنين من التجوّل في أرضهم وموطنهم دون امتلاك الإذن العسكري، والطريف أنّ الآخر لا يعفى الطفل من تنفيذ الحكم إعفاءً كاملاً بل ينقّذه على شخص آخر يدّعي الطفل قرابته، والآخر الذي يدّعي الديمقراطية لا يتأكّد من صحّة قول الطفل ولا يبذل أقلّ جهد بهذا الشأن بل يصدر الحكم الفوري على سعيد (الأنا) فور مثوله أمام القاضي، دون سؤال وردّ. فهنا ينكشف زيف ادّعاء الآخر مرّة أخرى وعدم مراعاته أبسط حقوق الإنسان والتضادّ المتواجد في الأقوال والأفعال. يذكر الروائي في الهامش أنّ

مثل هذا الحادث وقع بالفعل في تاريخ ١١/٣/١٩٥٣، ليوحى إلينا بالمرجعية الواقعية للرواية وبيّث فيها روح المصادقية عبر استخدام الوثيقة التاريخية في روايته.

٧-٤- الآخر الإسرائيلي والنظرة الدوئيّة إلى الأنا الفلسطينية

بناءً على الظروف الراهنة في الأراضي المحتلة ومحاولة الآخر الإسرائيلي لتضعيف وطرده الأنا الفلسطينية وبناءً على النظرة الدينية لليهود حيث يرون أنفسهم شعب الله المختار، يُلاحظ في رواية المتشائل أنّ رؤية الآخر الإسرائيلي إلى الأنا الفلسطينية رؤية دوئيّة، وهذا الأمر يتجلّى في أقوال وأفعال الآخر في مواجهة الأنا. الآخر الإسرائيلي يستخدم مختلف الأدوات والأساليب لتضعيف وتحقير الأنا، ومن هذه الأدوات استغلال الضعف الاقتصادي للأنا للسيطرة عليها واستخدامها في خدمة مصالحها فضلاً عن تفكيك الأنا وتجريدها من انتمائها إلى مجتمعه ووطنه، وهذا ما يفعله "الادون سفشارشك" بسعيد حيث يعطيه عشر ليرات ويقول له: «أبوك خدمنا، خذ هذه وكل» (حبيبي، ١٩٧٤م: ٥٧) «و بهذا الأسلوب يجردّ رجل السلطة (الآخر) أبا النحس من إنسانيّته ليكون أداة طيعة بين يديه ويستجيب لتوجيهاته بدون اعتراض وكأنّه مسلوب الإرادة (زعر، ٢٠٠٦م: ١٧) فنشاهد في مواضع عديدة من الرواية أنّ سعيداً (الأنا) يمثّل أوامر الآخر دون أى تردّد: قال أنا أبو اسحق فاتبعني فتبعته (حبيبي، ١٩٧٤: ٢٤) «فزجرني، فانزجرت» (المصدر نفسه: ٥٧)، «فقال انزل، فنزلت» (المصدر نفسه: ٥٧)، «زجرني يعقوب وصاح: تأدّب! فوقفت متأدّباً» (المصدر نفسه: ٦٦) وهناك نماذج أكثر في نصّ الرواية والتي تدلّ على ضعف الأنا في مواجهة الآخر وخضوعها لأوامره.

يحاول الآخر الإسرائيلي أن يُخفي نظرتة الدوئيّة إلى الأنا بواسطة أقواله وأدعاءاته في بعض الأحيان ويقدم صورة إنسانيّة لنفسه ولكن تصرّفاته تكشف عن حقيقة الأمر ليؤدّي إلى ترسيخ صورة سلبية له عند المتلقّي. على سبيل المثال جاء في الرواية أنّ قوات الاحتلال «حشروا الرجال في الأرض الخلاء عند الجابية، وراء كنيسة الأقباط طول النهار في الحر الأوار وبدون ماء مع أنّ الجابية كانت تفيض ماءً تحت أقدامهم.» (المصدر نفسه: ٧٣-٧٢) فحينما سمع الحاكم العسكري هذا البيت في وصف

حالة الرجال المشهورين «[كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهرها محمول]، أنكر أن يكون الجيش قد منع جمال الحارة ودوابها عن ماء الجابية ... حاولوا أن يفهموه أن الأمر تورية فثارت ثأثرته دفاعاً عن كرامة بنى الانسان الذين لا يصح تشبيههم بالدواب حتى ولو كانوا أعداءنا العرب، «لقد أصبحتم مواطنين مثلنا وطردهم من حضرته.» (حبيبي، ١٩٧٤م: ٧٣) فنشاهد في أقوال الحاكم العسكري (الآخر الاسرائيلي) أنه يدافع عن حقوق الحيوان بحماس ولكنه لا يراعى حقوق الانسان، فلا يسمح أن يمنع الجيش الدواب من الماء ولكنه يسمح منع الإنسان العربي (الأنا) من الماء طول النهار، كما أنه يثور بسبب تشبيه الإنسان بالحيوان ويدافع عن كرامته كما يدعى، ولكن تصرفاته تناقض أقواله حيث يتجاهل البعد المادى للأنا فضلاً عن بعدها المعنوى والدفاع عن كرامته. وحينما يقول الحاكم العسكري "مثلكم مثلنا" يدعى مساواة الآخر الجمعي الاسرائيلي والأنا الجمعية الفلسطينية بكل اختصار إلا أنه بعد انتهاء قوله يبادر بطرد الأنا الجمعية الفلسطينية من عنده (طردهم من حضرته) ليدل هذا التصرف على عدم مساواة الأنا والآخر والنظرة الاستعلائية للآخر الإسرائيلي تجاه الأنا الفلسطينية. ومن المواضيع الأخرى للرواية والتي تحتوى على دلالات التحقير للأنا الفلسطينية من جانب الآخر الإسرائيلي عندما يذهب سعيد إلى مركز البوليس لأجل زيارة الادون سفسارشك، حيث يقول: «جعلوني أنتظر (من السابعة صباحاً) حتى الرابعة مساءً دوغما طعام أو شراب سوى قدح شاي قدّمه لى جندي شاب حدثني باللغة الإنجليزية، فرددت عليه بأحسن منها. قال إنه متطوع جاء ليحارب الاقطاع، وإنه يحبّ العرب. وقبل أن يترك المركز عاد وصافحني بجرارة ووعدني بأنه حين تنتهي الحرب سيقيمون لنا كيبوتسات يعتمدون فيها على أمثالي من الشبان المتحررين الذين يتقنون لغة إنسانية.» (المصدر نفسه: ٥٦-٥٥) فهذا المقطع من الرواية يدل على إهمال الآخر الإسرائيلي بالنسبة للأنا وعدم الإكتراث بوقتها وحاجاتها الطبيعية مثل الأكل والشرب. وبالرغم من أن الجندي يدعى حبّ العرب إلا أنه في الوقت ذاته يعترف بشكل غير مباشر بكون العرب خارجاً عن دائرة الإنسانية حيث يعتقد أن اللغة الإنجليزية لغة انسانية وبهذه الطريقة يسلب صفة الإنسانية عن اللغة العربية. فالآخر لا يعترف بالأنا الفلسطينية بهويّتها الحاليّة بل يحاول تغيير إحدى أهم مكوّنات هويّتها وهي اللغة

ليعترف بها بوصفها انساناً. فيلاحظ في بداية كلام الآخر أنه يحاول بناء جسور الودّ والتفاهم مع الأنا من خلال إظهار حبه لها، ولكنّه في نهاية كلامه يقوم بتدمير هذه الجسور بواسطة محاولة إلغاء هوية الأنا وعدم الاعتراف بها.

من المظاهر الأخرى للنظرة الدونية على الأنا بواسطة الآخر يمكن الإشارة إلى كيفية اجراء الحوار بين الأنا والآخر ودراسة المفردات المستخدمة في هذا المجال. ففي احصائية أجريناها على نصّ الرواية شاهدنا أنّ الآخر لا يخاطب الأنا في أيّ موضع باحترام بل يستخدم مفردات رديئة وغير مناسبة، كما نشاهد في الجدول التالي:

الأفعال التي استخدمها الآخر لمخاطبة الأنا	
صاح	<p>١. صاح في وجهي أن قم، فقمّت. (ص ٢٤)</p> <p>٢. فصاح من أيّ قرية؟ (ص ٢٥)</p> <p>٣. فصاح: من البروة؟ (٢٥)</p> <p>٤. صاح: أجيبي أو أفرغه فيه. (ص ٢٥)</p> <p>٥. صاح الضابط: هل أنت أطرش؟ (ص ٣٠)</p> <p>٦. فزجرني يعقوب وصاح: تأدّب، فوقفت متأدّباً. (ص ٦٦)</p> <p>٧. صاح: إننا نعرف أين كنت أوّل أمس. (ص ٦٧)</p> <p>٨. فصاح: أم أسعد! (ص ٦٧)</p> <p>٩. فصاح: «أخت» ولفظها ألمانيّة فصحي. (ص ٦٧)</p> <p>١٠. فصاح: النرد! فارتميت على الكرسي ... (ص ٦٧)</p> <p>١١. فصاح: افتح. فقلتُ لاشيء هناك. (ص ٧٨)</p> <p>١٢. فصاح: إنّي أعرف من أنت يا حمار! (ص ٧٩)</p> <p>١٣. فصاح في وجهي: يا حمار! (ص ١٣٢)</p> <p>١٤. فزجرني وصاح: كنت أحسبك حماراً فإذا أنت أحمر. (ص ١٦٦)</p>
صرخ	<p>١. فصرخ أنا الحاكم العسكري وانزل عن الحمار (ص ٢١)</p> <p>٢. فصرخ: أعائدة أنت إليها؟ (ص ٢٥)</p> <p>٣. فصرخ: ألم أنذركم أن من يعود إليها يقتل؟ (ص ٢٦)</p> <p>٤. فإذا بعلمى يعقوب يهرول ويصرخ: ما كنت تفعل في حسر الزرقاء؟ (ص ١١١)</p> <p>٥. كان يصرخ: انزله يا بغل! (ص ١٥٦)</p>
أمري	<p>١. أمرني: غد في الصباح لأتقلك إلى حيفا. (ص ٣٣)</p> <p>٢. فأمر الضابط: هذا واحد آخر، عليه أن يثبت وجوده في المركز صباحاً. (ص ٣٠)</p>
زعق	<p>١. فزعق، فانتفضنا، فوقعت عن ظهر الحمار. (ص ٢٤)</p>

فهذه الاحصائية تدلّ على أنّ الآخر قد استخدم نسبة عالية من الأفعال التي تدلّ على النظرة الدونية للآخر تجاه الأنا في الحوارات التي جرت بينهما.

إضافة إلى ما ذكر، هناك ظاهرة أخرى تدلّ على شخصية الآخر وتُظهر وجهاً آخر من صورته وهي ظاهرة الشتم. تسمّى الناقدة صبحية عودة زعرب في كتابها «الشخصية اليهودية الاسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني» هذه الظاهرة بـ«العدوان اللفظي» وترى أنّ «العدوان اللفظي يندرج ضمن صور العدوان التي تمارسها الشخصية اليهودية الاسرائيلية على أبناء الشعب الفلسطيني بغرض قتل الروح المعنوية بداخلهم، وهو استجابة طبيعية لمكوّنات الشخصية الداخلية التي تظهر في صورة الغضب والانفعال، ومن ثمّ تتحوّل إلى ألفاظ الشتم والسبّ المنحطّة.» (زعرب، ٢٠٠٦م: ٢٠٠). من الصحيح أنّ الآخر الإسرائيلي يوجّه الشتم والصبّ أثناء غضبه، كما قالت الناقدة زعرب ولكن نصّ رواية المتشائل يدلّ على أنّ الأمر لا ينحصر في حالة الغضب فقط، بل نشاهد أنّ الإسرائيليين يتبادلون الشتائم أثناء الفرح والسرور أيضاً كما نشاهد في موضع من الرواية حيث يقول سعيد: «فضحك الدكتور (الإسرائيلي) وشمّمهم وشمّموه (الحرس) وضحكوا» (حبيبي، ١٩٧٤م: ٢٠) فيبدو أنّ الشتم بات ميزة سلبية قد امتزجت بذات الآخر ولا تتجزأ عنه. وكثيراً ما نشاهد أنّ الآخر الإسرائيلي يوجّه الشتائم للأنا الفلسطينية في محاولة تحقيرها وتنزيل شأنها بألفاظ كـ«يا حمار (ص ١٣٢)، ويا بغل (ص ١٧٨)، ويا ابن كلب (ص ١٦٩)» وغيرها والتي تصدر هذه الشتائم من النظرة الاستعلائية لليهود الذين يرون أنفسهم خير خلق الله وشعب الله المختار ويرون الشعوب الأخرى في درجات أسفل قريبة من درجة الحيوانات. (زعرب، ٢٠٠٦م: ٢١٠) نشاهد في الجدول التالي بعض الشتائم التي قد وجّهها الآخر الإسرائيلي إلى الأنا الفلسطينية.

العدوان اللفظي (الشتيم) للآخر على الأنا	
الحمار	١. إنني أعرف من أنت يا حمار، قُم واخبرني بما حدث. (ص ٧٩) ٢. صاح في وجهي يا حمار! (ص ١٣٢) ٣. قال: حمار ... حمار! (ص ١٥٦) ٤. كنتُ أحسبك حماراً فإذا أنت أحمر. (ص ١٦٦)
البغل	١. كان يصرخ (يعقوب): إنزله يا بغل! (ص ١٥٦) ٢. بالبطيخ تستطيع أن تنسف كتبية كاملة، إذا أخفيت فيه قتال نعل، يا بغل! (ص ١٧٨)
الأحمق	١. ... فالتبس الأمر إليك يا أحمق. (ص ١٥٦)
الكلب	١. بدأ أحدهم قائلاً: شكسبرنا يا ابن الكلب! (ص ١٦٩)

النتائج

قد أكد الكاتب في هذه الرواية على الجوانب الفكرية والثقافية لتصوير الآخر أكثر من الجوانب الجسدية والظاهرية، فقد حاول أن يقدم صورة الآخر بواسطة أفعاله وأقواله بدلاً عن البيان المباشر واللهجة الخطابية في تصوير الآخر، وبما أنه عاش في الأراضي المحتلة فقد استطاع أن يأتي بمصاديق حقيقية لصورة الآخر متمزجاً بمصاديق أخرى خيالية. وتأكيد الكاتب على الجوانب الفكرية والثقافية لا يعني أنه قد أغفل الجوانب الظاهرية والجسدية ولكنه أعطى دوراً أقل للعوامل الظاهرية قياساً بالجوانب الفكرية والثقافية.

الآخر الإسرائيلي يعاني من أزمة الهوية ولأجل تدارك هذه الأزمة يحاول السيطرة على المكان كمكون أساسي لتشكيل الهوية، كما أنه يحاول تجريد الأنا الفلسطينية من هويته بواسطة سلب المكان واللغة لأجل سهولة التغلب عليها وإنهاء الصراع الموجود بينهما لصالحه.

يلاحظ أن أكثر الأمكنة المذكورة في الرواية تمتلكها الأنا بالرغم من أنها تعاني الدمار والحراب أو الاحتلال بواسطة الآخر، وفي المقابل لا يمتلك الآخر مكاناً

امتلاكاً كاملاً، إذن ينفي الكاتب الهوية عن الآخر بواسطة عدم اختصاص المكان له وفي نفس الوقت يرى أنّ الأمكنة الموجودة في الأراضي المحتلة ملك الأنا بالرغم من التغيير في أسمائها أو ظاهرها.

إذا دققنا في نصّ الرواية شاهدنا أنّ الآخر الاسرائيلي يرى نفسه في مكانة أعلى من الأنا الفلسطينية وهذا الأمر يتجلّى في كفيّة الحوار الذي يدور بينهما حيث يخاطب الآخر الأنا الفلسطينية في أكثر الأحيان بمفردات بذية وبشتائم ويحاول تجريد الأنا من إنسانيته، كما أنّ الآخر يدعى دائماً أنّه يراعى أصول الديمقراطية ويجرّد الأنا من العلم بهذه الأصول ولكنّه في الحقيقة يستغلّ الديمقراطية ويمارس تحقير وتعذيب الأنا بواسطة التشبّه بهذه الذرائع.

يهتمّ الكاتب من الناحية اللغوية باستعمال المفردات والمصطلحات التي تجرى علي لسان الآخر الاسرائيلي حيث نشاهد أن الكاتب يجعل هذا الأمر من السمات البارزة للآخر الاسرائيلي فمن سماته العدوان اللفظي علي الأنا الفلسطينية واطلاق الشتائم عليها والتيل من كرامتها من خلال استعمال مفردات مثل "الحمار" و"البغل" و"الكلب" اضافة إلى أساليب مخاطبتها حيث لا نلاحظ ولو لمرة واحدة أن يخاطب الآخر الاسرائيلي الأنا الفلسطينية بشكل ينمّ علي احترام الفلسطيني بل يخاطبه دائماً أمراً أو صارخاً في وجهها أو صائحاً.

المصادر والمراجع

- أصغرى، جواد. (١٣٨٨ش). «دراسة جمالية عنصر المكان في القصة». مجلة كلية الآداب بجامعة كرمان. العدد ٢٦. صص ٤٥-٢٩.
- حافظ، صبرى. (١٩٩٦م). إميل حبيبي وسرد إحياء الذاكرة الفلسطينية. الدراسات الفلسطينية. العدد ٢٧. صص ١٣٤-١١٠.
- حبيبي، إميل. (١٩٧٤م). الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل. الطبعة الثانية. بيروت: دار ابن خلدون.
- حمود، ماجدة. (٢٠١٠م). صورة الآخر في التراث العربي. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- حمود، ماجدة. (٢٠١١م). «صورة الآخر في ألف ليلة وليلة». مجلة دمشق. المجلد ٢٧. صص ١٤٠-١٠٥.

- الحبّاز، محمّد. (٢٠٠٩م). صورة الآخر في شعر المتنبّي (نقد ثقافي). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الرشيدى، بدر نايف. (٢٠١١م). صورة المكان الفنية في شعر أحمد السقاف. رسالة ماجستير. جامعة الشرق الأوسط.
- زعر، صبيحة عودة. (٢٠٠٦م). الشخصية اليهودية الاسرائيلية في الخطاب الروائى الفلسطينى. عمان: دار مجدلاوى.
- سعودى، آمال. (٢٠٠٩م). حداثه السرد والبناء فى رواية ذاكرة الماء لواسينى الأعرج. الجزائر: جامعة محمد بوضياف.
- السليمانى، أحمد ياسين. (٢٠٠٩م). التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر فى الشعر العربى المعاصر. دمشق: دار الزمان.
- عيسى، فوزى. (٢٠١٠م). صورة الآخر فى الشعر العربى. مصر: دار المعرفة الجامعية.
- الفيومى، سعيد محمد. (٢٠١١م). «جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أمودجاً)». مجلة الجامعة الاسلامية. المجلد التاسع عشر. العدد الأول. ٨٨٢-٨٦٥.
- النايلسى، شاكر. (١٩٩٢م). مباحج الحرية فى الرواية العربية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات. نامور مطلق، بهمن. (١٣٨٨ش). «لمحة عن الصورولوجيا، تقديم أسلوب للنقد الأدبى والفنى فى الأدب المقارن». مجلة دراسات الأدب المقارن. السنة الثالثة. رقم ١٢. صص ١٣٨-١١٩.
- نانكت، لاتيشيا. (١٣٩٠ش). «الصورولوجيا كقراءة لنصوص إيران وفرنسا المعاصرة». ترجمة مؤده حقيقى. مجلة الأدب المقارن. الدورة الثانية، الرقم الأول. صص ١١٥-١٠٠.
- هلسا، غالب. (١٩٨٩م). المكان فى الرواية العربية. دمشق: دار ابن هانى.
- ياسين، أحمد. (٢٠٠٦م). الآخر فى الشعر الجاهلى. أطروحة الماجستير. نابلس: جامعة النجاح الوطنية.
- يحيى، أحلام. (٢٠٠٧م). صبّ الغمام. دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر.
- المواقع الإلكترونية: